العلاقة بين النص المكتوب والنص المرئي الشعر والصورة الفوتوغرافية

بيت الطين للشاعرة وفاء عبد الرزاق إنموذجا

أ.د.إسماعيل خلباص حمادي الزاملي

هـــــديل علـــــــي كاظـــــــم

المقدمة

لا ريب أنّ الفنون الجميلة تنبع من منابع متقاربة إلى حد ما،ولعل كونها وسائل تعبيرية عن علاقة الإنسان بالكون ومشكلاته هو المسوغ لوجود تلك المشتركات بينها،وقديما قيل بمبدأ المحاكاة[1]،الذي عدّ مبدأ يضم تحت لوائه تلك الفنون،،مع علمنا أن الوسائل أو المادة الأولية مختلفة إلى حد ما،فالشعر مادته اللغة والرسم مادته الألوان ،والموسيقى مادتها الإلحان والأصوات،وهكذا.... وبهذا نجد على مر العصور ذلك التوظيف المتبادل بين الفنون،فقد توظف الصورة في خدمة النص أو العكس،أو تصاحب الموسيقى الشعر،ولاسيما في إثناء الإنشاد[2]،والباحث عن العلاقة التي تربط بين الفنون الجميلة ليس له أن يتصور التماثل أو التقارب أو غيرها ،وإنما يبدو أنها تستند – تلك العلاقة – إلى مبدأ المغايرة كالعلاقة بين الخشب والنار،احدهما يعين الآخر،لكن لا الخشب نار ،ولا النار خشب .

وعلى هذا لا يمكن أنّ ننكر"العلاقة بين الفنون سواء تصورناها علاقة توازن أو تبادل أو تأثير وتأثر عبر العصور والآداب،غير أن المسألة لا تبدو بديهية حيث نتأملها بشيء قليل من التفكير،وحين تبحث نوع هذه العلاقة بين الفنون من حيث طبيعتها ووظيفتها ووسائلها وأشكالها الجمالية "[3]، تجدها تتنوع بتنوع تلك الفنون مع أن أرسطو قد وحد الفنون من رقص وشعر وموسيقى ونحت وتصوير وعمارة،ورآها لا تختلف عن بعضها في شيء سوى وسيلة

التعبير[4].ونجد الجاحظ يقول"المعاني مطروحة.....إنما الشعر صياغة وضرب من الجنس وجنس من التصوير" [5]،وتابعه النقاد العرب في الحديث عن العلاقة بين الفنون الجميلة ،فالجرجاني مثلا يقول:"إنما الكلام أصوات محلها من الإسماع محل النواظر من الإبصار"[6].

وإذا اتركنا الحديث عن العلاقة التي تربط بين الفنون الجميلة لصعوبة الحديث عنها مجتمعة؛بسبب تشعب ووجود بعض المغايرة في تلك العلاقة،أقول لو تركنا الحديث عن ما سبق وخصصنا حديثا عن العلاقة التي تربط الشعر بالرسم ،لوجدنا أن المسوغ للبحث فيها يشجع الباحث على تقصي تلك العلاقة ،وتاريخ الفنين يشير إلى قدم تلك العلاقة،وعدّها باحثون"قصة طويلة عمرها بثلاثة آلاف سنة في تاريخ الأدب والفن في الغرب والشرق،وهي قصة مثيرة تطرح أكثر ويبدو أن هذه العلاقة بنيت على أنّ الرسم بأنواعه يحرك وجدان الشعراء ويستفزهم لينطلقوا في محاكاة الصورة الفوتوغرافية أو اللوحة التشكيلية أو الرسم الكاريكاتوري،وقد بدت تلك القصائد تعابير انطباعية في صيغ لغوية فنية،وفي هذا المعنى يقول كورسون"إنّ الرسم والكتابة فن واحد وان الشاعر يستطيع أنّ يرسم الشعر كما يستطيع الرسام أن يكتب قصائد بلا صوت"[2]. ولا يمكن أن نتصور الحديث عن العلاقة بين الشعر والرسم حديث يقع تحت السيطرة،لأنه محفوف بالمخاطر فالمقارنة بينها أمر قد لا يقوى عليه كثير من النقاد إذ يحتاج إلى اطلاع واع على الفنين معا،وينطلق هذا الاطلاع من وعي تام بالأدوات التي يستخدمها الشاعر والأدوات التي يستخدمها الرسام ثم يأتي دوره المقارن واضعا في حسابه ذلك التمايز بين الفنين وتفوق احدهما على الآخر في أدواته فالكلمة المعبرة وبلاغتها وأسرها المتلقي تختلف عن اللون والفرشاة والضوء والظلام و....في فن الرسم ومع هذا لا تبدو المقارنة مستحيلة بل ممكنة وممتعة كأن الباحث يفتش عن أشياء في العملين الفنيين(القصيدة والرسم)كمن يبحث عن أشياء يفتقدها ويجدها واحدة تلو الأخرى مما يشكل متعة على قدر كبير من الأهمية.

وكي يكون البحث أكثر جدوى واقرب إلى ميدان التصور الصائب لابد له أن يجتزأ حيزا ضيقا لينطلق منه إلى مقارنة مفيدة،لذا يرى الباحثان أن يخصصا الحديث عن القصيدة وعلاقتها بالصورة الفوتوغرافية – وبهذا الخصوص يرى رولان بارت أنّ الصورة الفوتوغرافية توحي

بالكثير للناظر" عندما وقعت في يدي صورة لجيروم الأخ الأصغر للقائد نابليون شعرت أنني أرى العينين اللتين شاهدتا الإمبراطورية "[3] وهذا يعني أن الصورة لها لغة تقرب إلى حد ما من لغة الأدب وذلك واضح من النص وإلا ماذا نفهم من قوله(أرى العينين.....)،ولكي يكون البحث أكثر جدوى سنحاول أن نجعله يدور في فلك ضيق لكنه لا يخل بغايته ولذا سنتخذ من قصيدة واحدة إنموذجا للتحليل،ورأينا أنّ تكون القصيدة هي(بيت الطين) للشاعرة العراقية المعاصرة وفاء عبد الرزاق . وفي لقاء معها تحدثنا عن هذا الديوان (ادخل جسدي أدخلكم)قالت:في أثناء تصفحي للمواقع في الشبكة العنكبوتية،تقع عيني على صور فوتوغرافية،انتقي منها ما يلامس مشاعر خاصة بي،وعندها تأتي القصيدة من ركام هذه الحياة....

وهذا يعني أن تلك الصور الفوتوغرافية تشكل وخز إبرة للشاعرة تثير فيها مشاعر قد خبأت في مخيلتها منذ زمن قد يقترب أو يبتعد،مستقدمة تلك المشاعر لان تترجمها بما يناسب ووخز الإبرة تلك،ومن المؤكد بسبب اختلاف الأداة بين الشعر والرسم ،ستنفتح حدود الحديث في الشعر إلى آفاق قد لا نجد ما يؤيدها في الصورة الفوتوغرافية،ومع إمكانية حدوث هذا لانعدم حدوث غيري،لذا أرى أن المقارنة بين القصيدة والصورة الفوتوغرافية يتمخض عنها تصور أمور مهمة يدور في محاور ثلاثة هي:

أن هناك تطابقا تاما بين ما تؤديه اللغة في القصيدة،وما يتجسد في الصورة الفوتوغرافية،وهذا مما يبدو غير ممكن لاختلاف الأداة،هذا أولا،وثانيا أنّ الصورة الفوتوغرافية قد نبهت مخيلة الشاعرة ،فاندفعت إلى تداعيات حملتها مع الزمن ، لتعود بها الآن مع أن ملامحها فقط في الصورة.وثالثا تجد مفترقات بين القصيدة والصورة ،إذ تحمل الصورة كثيرا من الأشياء المتجسدة التي لم تلتفت إليها الشاعرة ،وأسباب ذلك كثيرة منها:أنها لا تولي اهتماما لهذا المجسدات لأن الانطباعية لم تتفق معها ،وقد يكون أن ما خبئ في الزمن البعيد أو القريب،لم يكن على مساس مع ما موجود في الصورة وعلى العكس من هذا تندفع القصيدة إلى معان لا نجد نظيرا لها في اللوحة،وهذا أمر ممكن للغاية،لان المبدأ الذي اشرنا إليه والذي جعلنا فيه الصوت وخز الإبرة يسمح بانفتاح القصيدة على معان قد لا يؤيدها ما في الصورة ذاك إذا علمنا أنّ فن

الشعر من الفنون التي يعتمد فيها الشعراء على أكثر من مخزون ينتمي إلى ثقافة الشاعر،وعند ذاك تتحول هذه الصورة إلى ما يشبه إلى حد بعيد ما يحاكيه الشعراء من وقائع حياتيه استفزته،وولدت لديه إحساسا يدفع به في اتجاه وضع وجهة نظر عمادها فلسفته في الحياة،هذه الوجهة تمثل موقفا محددا من هذه الواقعة أو تلك،"عمل الشعر منذ أن أدرك الإنسان أو إدراكه وبفعالية سحرية وجبارة على تفعيل مواجهة الإنسان للحياة واستئناف حواره الندي معها ودفع المعادلة المؤلفة لاشكاليتهما باتجاه التعادل التقريبي دائما" [1].ولان الشعراء لا يختلفون كثيرا عن بقية البشر تتناسب قدراتهم على الاكتشاف تناسبا طرديا مع اتساع وعيهم وثقافتهم"يكتشف الإنسان تناقضاته كلما اتسعت مساحة وعيه،وانــفتح على معطيات الحضارة ومنجزاتها وبذلك تتهدد فيه الكثير من الثوابت وتتصارع الكثير من القناعات وتتعرض للزوال أو التعديل في أحسن الأحوال"[1].ومع هذا وذاك،اقصد التباين أو الاختلاف والتشابه أو التماثل تبقى العلاقة وطيدة بين الشعر الرسم لان المنطلق في ذلك هو(الحس)الذي يأتي العين في المقام الأول فيه مع اشتراك الحواس الأخرى معها،ولذا نجد الشعراء يميلون إلى التشخيص أو التجسيد أو ما يسمى حديثا بالانسنة،رغبة منهم في تقريب ما يشعرون به إلى واقع حسي،فيميلون إلى تحويل المعنويات إلى ماديات أو محاولة الحوار والحديث مع موجودات في الطبيعة جامدة أو لا تعقل،كل ذلك لان يفسحوا المجال واسعا أمام المخيلة لان تتصور أو تتخيل ما يحدث على وجه الممكن،وبشكل يقرب إلى حد بعيد مما تلتقطه العين من الصور على اختلاف أنواعها ،وبهذا يُستثمر لنقل فكرة أو موضوع في إطار شخص من نسج الخيال [2].و بهذا تظهر الأفكار والمعاني والمظاهر الطبيعية الجامدة في صور كائنات حسية متحركة تنبض بالحياة. الصورة الجديدة في التشخيص تتولد من صور سابقة عليها بعد أن تُخلع عليها صفات وأفعال إنسانية تعطيها الحيوية وتسلب منها الجمود.إذن هو وسيلة من وسائل الصورة،يتم من خلالها فتح مجالات أوسع للتعبير غير المباشر" من إيهام المتلقي بمشاهدتها والإحساس بها حتى تكون الصورة أكثر قدرة على نقل المعنى إليه وتوكيده"[3].

وعلى هذا يقول سيمونيدس(السادس قبل الميلاد)"الشعر صورة أو رسم ناطق،وان الرسم أو التصوير شعر صامت" [4]،ونطق الشعراء بصورة الرسم لم يأت إلا من استخدام اللغة

التصويرية المشفوعة بصوت الكلمات،ولهذا قيل(رسم ناطق)والمعنى ذاته في القول(الرسم شعر صامت)فشاعرية الصورة تتكلم،ولكنها بصمت بلا لغة ،ومع هذا قادرة على البوح بما يرمي إليه الفنان،وليس بعيد من ذلك قول بيكاسو"وتستطيع أنّ تكتب صورة بالكلمات مثلما تستطيع أنّ ترسم المشاعر في القصيدة"[5].

وإذا قيل إنّ ذلك ممكن حيثما يتدخل الإنسان في لوحة تشكيلية أو رسم كاريكاتوري ولا يمكن ذلك في الصور الفوتوغرافية على اعتبارها أنها تسجيلية واقعية ليس للفنان لمسات تذكر في ذلك،وهذا الكلام مردود لأسباب منها أن الصورة الفوتوغرافية بفضل التطور الهائل في التكنولوجيا جعل إمكانية تحكم المصور بالذي يجب أن يصل إلى عين الرائي هذا من ناحية ومن ناحية أخرى،وللسبب السابق نفسه يتمكن هذا المصور المتدرب

المتمرن الممارس أن ينظر بعين فنان ليختار زاوية ما فيها قصديه لا تبتعد عن قصديه الفنون الجميلة،وهذا فيما يبدو هو السبب في لفت انتباه الشعراء إلى تلك الزوايا مما يحرك قرائحهم لان تجود بشعر يحاكي هذه الصور الفوتوغرافية، فقد وسع الشعر من فضائه إلى طاقة (زمكانية) لإمكانية التبادل بين الفنون،فما عاد ذلك التوزيع القائل أن الفنون الرسم والرقص مثلا لها حركة مكانية بينما الشعر والموسيقى لأنها تستقبل بالسمع والرسم حركة زمانية" [1].وفي الوقت نفسه يغايرها بسبب انتماء كل منهما إلى فن مغاير للفن الآخر.

ويبدو أن القصائد الشعرية تعمل بمقارنتها مع الصورة الفوتوغرافية على محورين أساسيين هما أولا التدعيم إذ يقوم النص اللغوي"بإضافة دلالات جديدة للصورة، مدلولاتها تتكامل وتنصهر في إطار واحد اكبر"[2]،وثانيا الترسيخ إذ تقدم "الصورة للمشاهد عددا من المدلولات لا ينتقي إلا بعضها و يهمل بعضها الآخر" [3].ويبدو أن الذي يهمنا ثانيا إذ أن أولا لا يكون إلا مع الصورة في التلفاز أو السينما أو في الخطاب الاشهاري(الإعلانات)،أما ثانيا فهو الذي يحصل تماما في العلاقة بين القصيدة والصورة الفوتوغرافية وسنحاول أنّ نجد ملامح ذلك في المثال الإنموذج(بيت الطين).

ولا بد من الإشارة على سبيل المثال فقط لا الحصر في أدبنا العربي مع علمنا أنّ الآداب الغربية وآداب الصين واليابان وغيرها،كانت تنحو المنحى نفسه،أقول لقد كان مثلا الشاعر عمر أبو ريشة يبني قصائده بناء عماده التصوير والنحت،كأنه يقدم لوحة فنية أو ينحت تمثالا منحوتا من الحجر أو لوحة مرسومة بالألوان،ويبدو أنّ هذا حاصل في نوعي الشعر الذاتي والموضوعي على اختلاف الأغراض وتنوعها[4]

بـــيت الطين

وجهُكِ الكتومُ على الحائطِ
تسحّ ُ الجاراتُ من طينـِهِ
عاصفةُ النقيض هو
ينقشُ عمرَهُ البذرُ
يتناقلُ الّلقاحُ بجفنِهِ
وحجرٌ أقولُ له أضئني
ظمئتُ حتى شاب دمي
كلّما خلتُ وقْعَ نارهِ أتبخَّر.
وجهُكِ عتبتانِ
إيقاعُ البعيدِ أعوادُهُ
عمّ ُالفصولِ وشقيقـُها
جرّدْني قصَبةً
نحو السَّماءِ اندفاعُها
فسحةُ الغصنِ الطريِّ
على شفتي توأمُ مائِها
وجهُكِ زحفُ الصروح بابُـه

طَرقتـُهُ

عضّ أصابعي بنقيضيهِ

وانتشرَ

لنساءِ الغسق العاريات ثياباً

رأيتـُه في المنام شهيَّ السُّؤال:

ووجنتـُكِ الحقلُ

لماذا حلبتِ ياسمينـَها؟

لماذا تركتِ الريحَ تشربـُهُ؟

أجبتـُهُ: أمومةُ عمري مالحٌ صبرُها

لمْ أنتبه أنـّي أشربُ البحرَ

لم انتبه أنـّي أرْضَعُ الريحَ

لم أنتبه أنَّ ابنتي جرعةٌ فاسدةٌ

ربـَّما حكمةُ الصمتِ لهُ

بابـُكِ حين طرقتـُهُ

لم انتبه أنـّي امرأةُ الظلامِ

وسُمرتي قـُفلُ الخطى

أقتـَلـَعُ من رئتي حين أحادثهُ

بابـُكِ لم تنمْ غابتـُهُ

ما زلتُ واثقةً أنَّـهُ المجيب.

بالنعناع أعجُنُ سنابلي حنـَّاءَهُ

أمسحـُهُ بركةَ وليٍّ وانتحبُ:

رأيتـُها البارحة على الرحال تلتئمُ

تكشطُ الطرقاتِ من قـُشور أضلعي

رأيتُ القشورَ براحتيها وطناً

أيحصلُ أن ينقرَ الحَبَّ بيدي
عصفورُ الترابِ ويسرقَ ناظري؟
كما كنتُ أسرقُ ضوءَها لرفـّهِ
أيحدثُ أن أراها بحجم البهجةِ
فوق قحط الأرض ظلا؟
حين تصبحُ غرفتي صلاةً خجولةً
أعرفُ أنَّ ثمارَكِ تنضحُ
من التصاق الشبابيكِ
واختناق الحقائبِ بعذرها
أتلمَّسُ روحَكِ النـَّهار
وقتَ تكسِّر أجزائي ساعة اختناق
يقدحُ الشايُ بكوبهِ وضوءاً
وصهوةُ الماء في القدح تقرأ المحيطَ
كتبي معجزةٌ اندفاع تتراقصُ
أصبحُ مدينةً جاهزةً للعناق
وعلى عجَلٍ خوفي أنهضُ
أعرفُ أنـَّكِ هنا
تأتين بالقَدر راكضاً
كصغيرٍ يتبع أمَّهُ
تضمـِّدين سكوني
تَصهَرين قيودَ أسئلتي
تتصاعدينَ غامرةً بالمطر
ويهطلُ ضلعكِ بالحنين.
قابلةٌ أنتِ

تولّدُ جمرةً بكرُها النـَّهرُ
صرختُ ساعة الطلق
صرخت الطيورُ والأغاني دُهلتْ
ها هنا مرقَ اختراقُـها
وها هنا دماءُ الدخول دفاترٌ
تسجِّل مولدَ بكرٍ
حين خلقهُ اللهُ لم يُثنِ.
صحا على نقر الجوارح الحلـُمُ
شَرهةً تخرجُ من صدري وتنهشُ.
أصدقائي خناجرٌ وضيوفٌ
يطاردون الزادَ بحثاً عن طفولتي
عن كركرةِ الشوارع للصغار
والعبثِ الطفلِ على قرص خبز البتول
عن رغبةِ الأرض في احتضانِ مهابةِ أقدامِهم
وهُم يشدّون قفزاتِـهم
على خِصر الضِّفافِ حزاماً
أنا الآن ألهو بتعثـّري
كلـَّما هربتْ جثتي من تناقصِها
أرجعتـُها لأحتمي بالشَلَلْ.
يتـَّسع الهـَذر بحكايتي
أصمتُ مشنوقة الصوت
بأوتار عود غريب
أقولُ له أغثني
وترُكَ أفضت له أمومتي

لي رغبةُ رقص الـّلجام
حين يُكبحُ
رقصَ العودُ مُرّ العروق
خبـّأ عينـَه ودسَّ في جيبي حالـَهُ
معولُ الشّريان يهدمُ
يتهدَّمُ ويختنقُ.
لا تختنقْ
كعادتها عندَ البابِ تسندُ قلبَها
و تتزاحمُ في عيونها الصور
حين لم تجدها السِّدرةُ انتحرتْ
أحمرُ النـَّبقِ سقفُكَ ما لـهُ
أليس فيه من أفواهِ الحمائم مضغةٌ؟
ملجأٌ العصافير صوتـُهُ
عشقنا رجعَ غزارتهِ
يجنـّح للشمس كي تستظل.
بيتُ الطين
يا أنا في الصفعات ومذاق العصا
قدمي لا تستريحُ
وصلَ العدّ حدَّهُ
اعرفني ولو بالشبَهِ الـظـّنون
الشـّاهدُ ما بكَ من هوى
وضريحي وردةٌ
لا يـُدفنُ القرنفلُ
قبري زجاجةُ عطرٍ

تقطِّرُ ماءكَ وتختمرْ.

ويبدو أن ديوان وفاء هو من النوع الأول،إذ تختار الشاعرة صورة ما – كما تقول – قد حركت فيها مشاعر معينة،وعند ذاك يكون نظم القصيدة على حسب التداعيات التي أفرزتها الصورة في مخيلة الشاعرة،ولتوضيح تلك العلاقة نأخذ قصيدة بيت الطين ونحاول أولا أن نتلمس مكونات الصورة ،وما يمكن أن توحي به لنعقد تلك المقارنة بينهما.

مكونات الصورة

- **بيت من الطين كثيرا ما تجده قديما في المناطق الريفية،ولاسيما في جنوب العراق،ويمثل هذا البيت الحدود الدنيا للعيش في مسكن يوفر حدودا متواضعة من الراحة والاستقرار و.....**
- **يطل هذا البيت على نهر صغير يبدو ماؤه ليس صافيا،هادئ الموج له ساحل أو ضفة متسخة يميل لونها إلى السواد فيها قصب يابس،ويحتوي في داخله زورق صغير،كثيرا ما يستخدم للصيد أو التنقل لعدم وجود الجسور للعبور إلى الضفة الأخرى.**

- **واجهة البيت توحي بالفقر والعوز،إذ أن الحائط الذي هو في يمين الصورة مهدم،تطالعنا بالقرب منه شبابيك صغيرة ،قد لا تكفي لدخول نسمة الهواء إلى غرفة،له بابان أولهما من الحديد مفتوح إلى نصفه والثاني بلا باب أو بنصف باب.**
- **تختلط النُخيلات المتعبة بسعفها غير الموحي بالاخضرار كما يجب،وهي متفرقة،وإحداها رأسه قد يكون مقطوعا أو انه لم ينمُ كما يجب مع شجيرات ثلاثة متباعدة يبدو أنها من شجر(السدرة).**
- **في أقصى اليمين(صحن)يشير إلى التقاط القنوات الفضائية،والذي أملاه التطور التكنولوجي وغزوه المناطق الريفية النائية.**
- **رجل يجلس على سرير له يبدو من الحديد وجلوسه يوحي بالتعب،فكان منحنيا إلى الأسفل قليلا،وأخيرا فكان جلوسه أولا في واجهة البيت،وثانيا تحت ظل إحدى الشجيرات أو لنقل أكبرها.**
- **السماء التي توحي زرقتها بالفضاء المفتوح في تلك المناطق الريفية،وما يمكن أن يوفره ذلك من امتداد للنظر فيه،يكون فيه بعض التعويض عن تلك الغرف الصغيرة المتداخلة بغير نظام،والتي تفتقد لسبل الراحة.**
- **يوحي البناء ككل إلى انه بناء غير منظم بعشوائية مفرطة،تدل على عدم الوعي في بناء مثل هذه المساكن،إذ هم هؤلاء الفقراء أنّ يجدوا سقفا يحميهم ،ولو بالقدر الضئيل من حرارة الشمس أو من الأمطار،ويستر عوائلهم ويوفر له بعض الخصوصية.**
- **محاذاة البيت للنهر الصغير تشير إلى أنّ الماء سر الحياة،فالبشر منذ القدم والى الآن يرغبون في بناء بيوتهم أو تجمعاتهم السكنية قرب الماء فهو العنصر الحياتي الثاني بعد الهواء،الذي لا يستغني عنه لأيام،ولأنه ضرورة يحتمها العيش،فالاقتراب منه أمر غاية في الأهمية.**

المقارنة بين القصيدة والصورة

- على مستوى حضور الكلمات التي تنتمي إلى هذا المكون(بيت الطين) نجد الشاعرة قد اعتمدت على مفردات معينة ترتبط بوشائج قوية مع الصورة ،ولن أن نذكر فيها(الحائط،الطين،العاصفة،البذر،اللقاح،حجر،عتبتان ،أعواده الفصول،قصبة،السماء،الغصن،ماء،باب،الحقل،الريح،غابة،النعناع ،سنابل ،حنّاء،الحب،التراب،عصفور،قحط،ثمار،الشبابيك،الشاي،كوب،القدح،المطر ،جمرة،الطيور،حناجر،ضيوف،الزاد،خبز،معول،السدرة،النبق،الشمس،بيت الطين).
- وجهك الكتوم على الحائط قد يشير هذا الشطر إلى البيت وواجهته الحزينة البائسة التي تدل على الفقر والعوز والمتاعب وصعوبة العيش،ومن الممكن أنها تشير إلى ذلك الإنسان الجالس على السرير في واجهة البيت ،وما يوحيه وجهه من كثير من الهموم،يخبئها داخل صدره(يكتمها)إذ يبدو انه مقتنع أن يبقى على معاناته داخل نفسه،ولا تبدو إلا ظاهره على وجهه يبقى هو صامت بينما وجهه يتكلم وإذا كان الاحتمال الأول واردا أو الثاني ،فكلاهما يدل على شدة المعاناة وما يكابد هؤلاء الفقراء فعيشهم كله عناء وشقاء.
- تسح الجارات من طينه يبدو أن هذا التجاور بين الفعل سح وفاعله الجارات تجاور مجازي،إذ انه يستخدم ليدل على سيل الماء من فوق،ويشترك مع الماء في دلالة الفعل المطر والدموع،وارى إنني أرشح المشترك الثالث (الدموع) لأنه يتناسب وعناء الإنسان الريفي،وفي الوقت نفسه حتى يسمح للجارات تسيل من ذلك الطين،مصدر خلق الإنسان ومصدر بيت الطين.
- عاصفة النقيض هو نعم هذا الوجه بيتا أو شخصا عاصفة.
- ينقش عمره البذر النقش يوحي بالصعوبة التي يبذلها النقاش في نقش ما، وعند ذلك هذا البذر الذي يمثل مصدر القوة ومصدر الحياة،يجد صعوبة في النمو في ذلك الجو الذي لا تتوافر فيه مستلزمات العيش.
- يتناقل اللقاح بحفنه الهواء احد مصادر نقل اللقاح من زهرة إلى أخرى يصبح الآن الجفن مصدرا،ولعل ذلك دليل على أهمية هذا اللقاح لأولئك الناس الذين يرمون استمرار الحياة.

- **وحجر أقول له أضئني حتى شاب دمي،كلما خلت وقع ناره أتبحر،تحدث الحجر،حتى يضيء لأنها عطشى شاخ دمها فكلما فكرت بالإضاءة تبخرت أحلامها ،لأنها لا ترجو من ذلك الحجر أن يكون مصدر ضوء أو ارتواء.**
- **وجهك عتبتان،إيقاعُ البعيد أعوادهُ،عم الفصول وشقيقها تشير على عتبة الباب لبيت الطين،تلك العتبة التي تشير إلى إيقاع الزمن آنذاك في تلك الحياة البائسة التي تنسب فيها الفصول إلى بعضها يكاد لا يفترق فصل عن آخر فكل الفصول هي جدب وقحط وحياة تشيء بالمتاعب والمصاعب.**
- **جردني قصبة،نحو السماء اندفاعها فسحة الغصن الطري على شفتي تؤام مائها القصبة تشير إلى رغبة الشاعرة في أن يندفع هؤلاء نحو العلو كما هي تريد لحياتهم أن تكون طرية تعقد تؤامها مع سر الحياة (الماء) .**
- **وجهك زحف الصروح بابه،طرقته،عضَّ أصابعي بنقيضه،وانتشر،لنساء الغسق العاريات ثيابا وجهك أيها البيت أو أيها الإنسان جالس في واجهة البيت كأنه بناء يرمي إلى أن يعلو لكنه ليس كذلك،فعند طرقه عض أصابعي بنقيضه(البناء الواهي الضعيف الذي لا تتوافر فيه سبيل العيش الكريمة،فقد كان سرا من أسرار ذلك العراء لتلك النسوة لفقرها وعدم قدرتها على ستر أجسادها.**
- **رأيته في المنام شهي السؤال،ووجنتك الحقل،لماذا حلبت ياسمينها؟،لماذا تركت الريح تشربه؟ بعد الرؤية في المنام لسؤال أو لأكثر من سؤال يتردد على الشاعرة،لاسيما ذلك الربط الغريب بين الوجنة والحقل،اندفعت بسؤالين حلب الياسمين،وترك الريح تشربه لترشح الإجابة فيما يأتي .**
- **أجبتهُ:أمومة عمري مالح صبرها،لم انتبه أني اشرب البحر لم انتبه أني ارضع الريح،لم انتبه أنّ ابنتي جرعة فاسدة،ربما حكمة الصمت لهُ الأمومة مالح صبرها،وكم في الملح من مرارة لتكون علامة لصبر،يكاد يكون أبديا يتعطش فيه إلى ماء يرويه لذلك كانت غير منتبهة تشرب البحر لعطشها ،ولرضع الريح لحاجتها إلى هواء يملأ رئتيها الفارغتين،فقد ولدت جرعة فاسدة هي نتاج ذلك التعب والمعاناة ،وقد يكون سبب ذلك**

استكانة أبناء الريف ،فقد اكتفوا بالصمت ،لم ينطقوا بكلمة تغير أحوالهم أو تعالج معاناتهم.

- **بابك حين طرقته،لم انتبه أني امرأة الظلام،وسمرتي قفل الخطى،اقتلع من رئتي حين أحادثه طرق الباب من تلك المرأة (امرأة الظلام)وفي ذلك إشارة إلى الجهل الذي خيم على سكان مثل هذا البيت (بيت الطين)مشيرة بالسمرة التي تلون أجساد أولئك الذين أحبتهم الشمس الحارقة في جنوب العراق.**
- **بابك لم تنم غابته،ما زلتُ واثقة انه المجيب بابك أيها البيت ما زال يصحو فيه ما يوحي بالحياة الشجيرات والنخيل والخضرة عندها،إنها ما زالت تثق إن إجابة ما ستأتي،لتحل لغز التساؤلات التي تقدمت أو التي تدور في ذهنها.**
- **بالنعناع اعجن سنابلي حنَّاءَهُ،امسحهُ بركة لي وانتحب:رأيتها البارحة على الرحال تلتئم،تكشط الطرقات من قشور أضلعي،رأيت القشور براحتيها وطنا السنابل تعجن بالنعناع لتكون حناء تخضب به نساء الريف رؤوسهن وأيديهن ينشدن الجمال فتمسحه بتلك البركة ،ولكن ذلك لا يزيدها إلا بكاء،فكل ما لدى أولئك الناس هو القشور فهي وطنهم.**
- **أيحصل أنّ ينقر الحب بيدي،عصفور التراب ويسرق ناظري؟كما كنت أسرقُ ضوءها لرفّهِ،أيحدث أنّ أراها بحجم البهجة،فوق قحط الأرض ظلا؟ تساؤلات مبنية على إمكانية أن يألف العصفور تلك الأيدي التي تمسك الحب، لأنه كما هم جائع يسرق الحب ويسرق النظر،وأخر التساؤلات كأنها تتمني أن ترى البهجة تسود تلك الأرض التي يلفها العوز(القحط)لتكون ظلا وارفا لها.**
- **حين تصبح غرفتي صلاة خجولة،اعرف أن ثمارك تنضج،من التصاق الشبابيك،واختناق الحقائب بعذرها،أتلمسُ روحك النهار وقت تكسر اجزائي ساعة اختناق،يقدح الشاي بكوبه وضوءا،وصهوة الماء في القدح تقرأ المحيط هنا قد لا أجد لهذه الأبيات ما يؤيدها في الصورة الفوتوغرافية(بيت الطين)وأظن أنها تداعيات لهذه الصورة ومقارنتها بحياتها في المهجر، وما نتج عنها من غربة تكون من ملامح تلك الغربة،الصلاة**

الخجولة واختناق الحقائب وتلمس الروح وتكسر الأجزاء في أثناء الاختناق(الشوق إلى بلدها إلى أهلها)فنلمس لازمة(الشاي)لنقرن بينه وبين(الضوء).

- **كتبي معجزة اندفاع تتراقص،أصبحُ مدينة جاهزة للعناق،وعلى عجل خوفي أنهضُ،اعرف أنك هنا،تأتين بالقدر راكضا،كصغير يتبع أمه،تـــــضمدين سكوني تصهرين قيود أسئلتي،تتصاعدين غامرة بالمطر،ويهطل ضلعك بالحنين،قابلة أنتِ،تولد جمرة بكرها النهر،صرختُ ساعة الطلق،صرخت الطيور والأغاني ذُهلت،ها هنا مرق احتراقها،وها هنا دماء الدخول دفاتر ،تسجل مولد بكرٍ حين خلقه الله لم يئن،صحا على نقر الجوارح الحلم،شرهة تخرج من صدري وتنهشُ الكتب قصائدها معجزتها، تتراقص ،جاهزة للعناق وفي عجلة من أمري أجد هنا فيّ(في الشاعرة)ذلك الوجع الذي أحسته حين رأت هذه الصورة (بيت الطين)فحركت فيها مشاعر أخذتها بعيدا لتلك الحياة البائسة،وما كان ذلك إلا قدرا يشبه بطفل صغير متعلق بأمه ها هو قدر أولئك الناس المتعبين،يلاحقهم كما تلاحق الأطفال أمهاتها ،فكانت كتبها(قصائده)هي ضماد جروحها(السكون)،تذيب(تصهر)هذه القصائد كل قيد لأي سؤال مر في خاطرها،تهطلين أيتها القصائد مطرا غيومه ضلعك الحنين،تمارسين مهمة التوليد فكان وليد جمرة بكرا،صرخت بك أيتها القصائد ساعة الإبداع(ساعة الطلق)معي تصرخ الطيور والأغاني مذهولة، من هنا مرق قصائدي من هذا البيت(بيت الطين)ومن غيره الذي يشبهه لتدخل دفاتري(دواويني)دما يسري في العروق،تسجل مولودها الذي خلق الله، وهو يصحو على نقر الجوارح فكانت قصائدي شرهة،قتلتهم معاناة أهلي وناسي،تخرج من صدري وتنهش من كان سببا في هذا الضياع.**
- **أصدقائي خناجر وضيوف،يطاردون الزاد بحثا عن طفولتي،عن كركرة الشوارع للصغار،والعبث الطفل على قرص خبز البتول،عن رغبة الأرض في احتضان مهابة أقدامهم،وهم يشدون قفزاتهم،على خصر الضفاف حزاما تشير إلى أيام الطفولة وكيف كانت لأولئك الأطفال الخناجر الضيوف الذين يطاردون الزاد،وأصواتهم(كركرة)تعـــلو في الشـــوارع الصغيرة،يلعبون يعيشون،يرقصون،وكأن الأمر لا يعنيهم،هكذا ولدوا لذا**

كانت الأرض تحن لأقدامهم تستضلها بخيبة وخشوع وهم يبتكرون اللعب ليخضروا بها الضفاف لذلك النهر،كأنهم يقيدوه بحزام.

- أنا الآن ألهو بتعثري،كلما هربت جثتي من تناقصها،أرجعتها لأحتمي بالشلل ،يتسع الهذر بحكايتي،اصمت مشنوقة الصوت،بأوتار عود غريب ،أقول له أغثني،وتُرك أفضت له أمومتي لي رغبة رقص اللجام حين يكبح ،رقص العود مُرّ العروق،خبأ عينه ودس في جيبي حاله،معول الشريان يهدم،يتهدم ويختنق،لا تختنق،كعادتها عند الباب تسند قلبها،وتتزاحم في عيونها الصور، حين لم تجدها السدرة انتحرت،احمر النبق سقفك ما له،أليس فيه من أفواه الحمائم مضغة؟،ملجأً العصافير صوتهُ،عشقنا رجع غزارته،يجنح للشمس كي تستظل لهوها تعثر لأنها تقع بين متناقضين،الحياة التي تحياها في لندن،ومقارنتها بحياة أولئك الجياع الحفاة في العراق في بيوت الطين،تنازع نفسها(جثتها)يعني أن تبقى هنا في لندن أو تنتقل إلى أن تتحس تلك البيوت،تصبح حكايتها شيئا يشبه الهذر(الهلوسة)،الكلام غير المجدي،فتصمت فيختنق الصوت بداخلها،أوتاره غريبة هي نتاج هذا التناقض،تطلب الإغاثة منه،ذلك الوتر تطلب الرقص،ولكنه رقص ناتج عن شيء يشبه توالي حركات لجام الخيول في الشد والجذب،انه رقص من يختنق بسبب الألم والحسرة على ضياع أولئك الذين تربطها بهم صلة الطفولة في البصرة إحدى مدن الجنوب العراقية،لذا لجأت في شجرة السدرة لتناغيها مرة،فقلبها يسد ذلك الباب في تلك الصورة مشيرة إلى بذرها(النبق الأحمر)وكونه غذاء تلك الطيور(الحمام والعصافير)وكأن هذه الصورة التي رسخت في ذهن الشاعر من أيام الطفولة ،وكيف يتسابق الأطفال مع الطيور في الحصول على (النبق).
- بيت الطين،يا أنا في الصفعات ومذاق العصا،قدمي لا تستريح،وصل العدُّ حده،اعرفني ولو بالشبه الظنون،الشاهد ما بك من هوى،وضريحي وردة، لا يدفن القرنفل،قبري زجاجة عطر،تقطر ماءك وتختمر تنادي بيت الطين وتشرك نفسها في النداء(يا أنا)وكأنها امتزجت لتكون هي وبيت الطين واحدا قدمها لا تستريح،تشير إلى عودتها إلى أهلها،بين

حين وآخر،فالمعروف عن الشاعرة دائمة الترحال،تزور بلدنا بين حين وآخر،وصل عمرها الحد الأخير قد تشير إلى سنوات عمرها لذا طلب أن تكون ممن يعرفون ببلادهم،ومما يؤيد ذلك إشارتها إلى الضريح الوردة،والدفن القرنفل،والقبر لزجاجة العطر، فهي الوردة،وهي القرنفل،وهي زجاجة العطر،كلها يقطر من ماء حياة الجنوب،فقد اختمرت صورته في ذهنها،ولا أدل على ذلك إلا ما مثله(بيت الطين)من إثارة لمشاعرها،فجأت هذه القصيدة تحمل تداعيات تتوزع بين الحديث عن العناء والفقر،وعن أيام الطفولة همومها الذي يجسد حنينها لوطنها،ولتختم القصيدة بنهاية العد الذي انبثق عن هواجس تمثل خوفها من الرقم الأخير.

ومما سبق يتضح بلا أدنى شك أن هذه الصورة الفوتوغرافية(بيت الطين)قد اختارتها الشاعرة وفاء عبد الرزاق عن قصد لما تمثله من رمز يحمل في دواخلها كل عناء السنين وقحط الأيام التي عاشها الكثير من العراقيين في مدن الجنوب من عوز وفقر وجهل وحرمان،لم يتوافر فيها أدنى أسباب العيش لهذا المخلوق(الإنسان) الذي جعله الله تعالى خليفة له في الأرض ليعمرها ويعيش عليها ويوظفها إلى أقصى حدود الإفادة من كل هذه الخيرات.

ولان الشاعرة تعيش حياة الغربة في بلد(بريطانيا)من البلدان المتقدمة التي يهنئ فيها الإنسان بعيش رغيد تتوافر له كل سبل الراحة والأمان وسعة العيش، أقول لأنها تعيش....تقارن بين هذه الحال وتلك وتحس حينها بألم يعتصرها،فتلد قصائدها تلك لتكون متنفسا لها،يخفف هذا التناقض المقلق.

الصورة إذن وفرت مناخا مناسبا عاشت الشاعرة فيه أجواء الريف، فاستقدمت مخزونها أيام الطفولة،ومما أدركته فيما بعد فتولدت هذه المعاني التي ترجمت فيها الشاعرة الصورة الفوتوغرافية لا أقول بدقة عالية لان الشعر لم تكن هذه مهتمة لا في القديم ولا في الحديث،وإنما اشتبكت موجودات الصورة وموحياتها مع ما يختلج في صدور الشاعرة لينتج عن ذلك فيض من المعاني تدور في فلك الصورة الفوتوغرافية تعززها من ناحية،ونضيف إليها من ناحية أخرى.

ويبدو أن هذا اللون من التجريب في ميدان الشعر المعاصر هو لون تتضافر فيه الصورة مع القصيدة،فتشتبك المشاعر مع حاسة البصر،نقرأ ونرى وهذا مرحلة تبدو متقدمة لان القراءة والرؤية البصرية هي غير القراءة والتصور ففي الأولى نلمس هذا التعاضد والتعاون ونصل إلى غايات متقدمة من الإتباع والتفكير والدهشة والتعجب.

ولا أقول أن الإمتاع و.....لم يكن متحققا في الشعر قبل هذا بالعكس،وإنما ما اقصده أن هذه الصور الفوتوغرافية تسير في اتجاهين مهمين للشعر المعاصر الأول أنها تمثل حوافز شعورية،تكون سببا في إبداع قصائد فنية جميلة،والثاني أن الصورة تقف إلى جنب القصيدة توضح ولو بقدر مقاصد الشاعر،وبهذا يختلف هذا النوع من الشعر عن غيره،الذي لا ترافقه الصورة.

ومن هذا المنطلق نجد الآن في الخطاب الاشهاري(الإعلانات)،الاهتمام يكون بالصورة أكثر من الكتابة التي ترافقها،لان الإنسان مهما تقدم في العلم يبقى أسير الحواس الخمسة،ولعل حاسة البصر في العصر الحديث لها حضور واسع ومميز لأنها الأقدر على الإيصال،وعندها تأتي القصيدة لتحقق بالاشتراك معها الإيصال ،وتضيف إليه تأثير وهما غايتان مهمتان للأدب

الهوامش

قصيدة وصورة الشعر والتصوير عبر [1]العصور تأليف عبد الغفار مكاوي:9، 1987.

ينظر:فن الشعر،أرسطو:3.

البيان والتبيين،الجاحظ:114/2.

دلائل الإعجاز،الجرجاني:87.[2]

[1]

[2]ينظر:فن الشعر،أرسطو:24

[2] ينظر:سينمائية النص الشعري الشعر العراقي إنموذجا،د. أثير محمد شهاب:8-9.

سؤال وجواب عن تلقي الشعراء لأعمال الفن واستقبال الفنانين لفيض الشعراء" [1].

قصيدة وصورة الشعر والتصوير عبر العصور ،عبد الغفار مكاوي:5.

المصدر نفسه:15.

لذة النص إلى لذة الصورة الفوتوغرافية،حسين عيسى المحروس ،منتديات روسيا اليوم.

صوت الشاعر الحديث،محمد صابر عبيد:13،عالم الكتب الحديث،اربد،الأردن،2011.

ينظر معجم المصلحات الأدبية ،إبراهيم فتحي:85.

الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، مجيد عبد الحميد ناجي:188.

قصيدة وصورة الشعر والتصوير عبر العصور:18.

الشعر والرسم،فرانكلين جوند:51.

صوت الشاعر الحديث،محمد صابر عبيد:13.

(1)

المصـــــــــادر

- **الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ،ط1984،1.**
- **البيان والتبيين،أبو عثمان بن بحر الجاحظ،ت:عبد السلام هارون،القاهرة ، 1961.**
- **دلائل الإعجاز،عبد القاهر الجرجاني، مطبعة السعادة،مصر.**

(1)

- سينمائية النص الشعري الشعر العراقي إنموذجا ،د.أثير محمد شهاب،سلسلة ثقافية شهرية تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد،إصدارات الموسوعة الثقافية العدد(90)،لسنة 2010.
- الشعر والرسم،فرانكلين روجرز،ت: مي مظفر،دار المأمون للترجمة والنشر ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ط1 ، 1990.
- صوت الشاعر الحديث،محمد صابر عبيد،عالم الكتب الحديث،اربد،الأردن ،2011.
- عمر أبو ريشة ومحاكاته الفنون الجميلة،مجلة الرافد،دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة.
- فن الشعر،أرسطو،ت: شكري عياد، القاهرة ، 1967.
- قصيدة وصورة الشعر والتصوير عبر العصور، عبد الغفار مكاوي، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت،1987.
- لذة النص إلى لذة الصورة الفوتوغرافية،حسين عيسى المحروس،منتديات روسيا اليوم.
- المتخيل التعبيري،نادر احمد عبد الخالق،شركة العارف للمطبوعات، بيروت لبنان، ط 1، 2011.
- معجم المصلحات الأدبية،إبراهيم فتحي المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس، ط1، 1986.